تشابهات بين الغزوين الامريكي والمغولي لبغداد

يحيى اليحياوي*

■ في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) من العام 2003، قال الرئيس العراقي صدام حسين في الذكرى الثانية عشرة لبدء الحملة الأمريكية لإخراج القوات العراقية من الكويت: إن مغول العصر سيجبرون على «الانتحار على أسوار بغداد».

لم يكن الرجل يتحدث عن عارض تاريخي أضحى مدعاة للذكرى، مجرد الذكرى فحسب، بل كان يلمح إلى حتمية غزو أمريكي كانت في حينه، كل المؤشرات تدلل أن علاماته الأولى تجلت وعده العكسي المتسارع ابتدأ.

وكذلك كان. فلم يمر على الخطاب إياه إلا نزر من الوقت حتى كان العراق برمته تحت الاحتلال، وأركان دولته مقوضة عن آخرها، وعاصمته مستباحة في معالمها وتراثها ومتاحفها، ورأس الدولة يحاكم، والبلاد برمتها على شفا مأسسة التقسيم على أسس من الطائفية والمذهبية وما سواهما.

قد لا يكون من الأهمية معاودة الحديث هنا عن سياقات الغزو وخلفيات الاحتلال وما تبطنه الإدارة الأمريكية للعراق وللجيران، بقدر أهمية التوقف من جديد عند نبوءة الرئيس العراقي بحتمية «انتحار مغول العصر على أسوار بغداد».

والواقع أن ملابسات سقوط بغداد بيد الاحتلال الأمريكي في نيسان (أبريل) من العام 2003، تكاد تشبه في العديد من حيثياتها ومظاهرها وتجلياتها، ما وقع لهذه المدينة بالقرن الثالث عشر الميلادي على يد المغول وعلى يد هولاكو بالتحديد، حفيد جنكيزخان باني دولة المغول وواضع قوانينها.

يلتقي غزو بغداد من لدن الأمريكان وغزوها من لدن المغول بثلاثة عناصر كبرى على مستوى الظرف العام، ويلتقيان أيضا بثلاثة أخرى على مستوى النتائج والسلوك المعتمد والتداعيات، مع الفارق الموضوعي بين الحالتين:

● فعزم هولاكو دخول بغداد (وقد حشد لذلك عشرات الآلاف من الجند) إنما تأتى له بعدما تأكد من وهن الخلافة، وضعف الخليفة المنتصر (ذي العزيمة الخائرة يقول المؤرخون)، وفساد حاشيته من حوله، وانفصامه عما يجري ببغداد وبالخلافة جراء نفاق بعض من كبار وزرائه وتقربهم المبطن من المغول.

لم يكن حال العراق، غداة الحرب عليه أواخر آذار (مارس) 2003، مختلفا كثيرا عن حال دولة الخلافة. فالبلد خرج منهكا من حربين متتاليتين دمرت جزءا كبيرا من بنيته العسكرية والمادية، والبلد تعرض لحصار دولي تجاوز العقد من الزمن، انتزعت من سيادته جراءه أطراف ومناطق بأكملها، وتآمرت عليه فصائل وأحزاب بالداخل كما بالخارج، ورتبت للغزو مع الإنكليز والأمريكان، ووفر بعضهم لذات الغزو موطئ قدم، وسمح لهم بنقط خلفية مهدت لهم الزحف على بغداد من أكثر من جهة وعلى أكثر من واجهة.

وإذا كانت مسوغات هولاكو لدخول عاصمة الخلافة العباسية قد ارتكزت على مؤخذات له على الخليفة كونه لم يبد تعاونا كافيا مع المغول للقضاء على الإسماعيلية، فإن مبررات الإدارة الأمريكية لغزو العراق إنما بنيت على اتهام مباشر للرئيس العراقي بامتلاك أسلحة دمار شامل من شأنها «تهديد أمن العالم وسلامته»، وادعاءها بعدم «تعاونه الكافي» مع مقررات الأمم المتحدة لتدمير ذات الأسلحة جملة وبالتفصيل.

كانت مسوغات هولاكو واهية، وهو العارف بوهن الخلافة واستحالة مجاراة الخليفة لهولاكو في فتوحاته، تماما كما بات مؤكدا فيما بعد عدم امتلاك العراق لأسلحة من نوع الدمار الشامل، أو تقصير قيادته في التعاون مع فرق التفتيش.

لم تكن المسوغات، بكلا الحالتين، إلا جزءا من مخطط قائم كان هولاكو يتغيأ من خلاله الاستيلاء على الجزء الممتد من جيحون إلى مشارف النيل من دار الإسلام، وكان بوش الإبن يهدف من ورائه (المخطط القائم أقصد) التحكم في مصادر النفط وحماية أمن إسرائيل والتموقع بتخوم المنافسين الآسيويين الصاعدين سيما الصين وروسيا.

وإذا كانت تهديدات هولاكو للخليفة قد ذهبت (في رسالته إليه في العام 1255) لحد تهديده المباشر له، وتذكيره بما كان مصير الخوارزمة والسلاجقة، فإن بعض أركان الإدارة الأمريكية (في عهد بوش الأب تحديدا) هددوا الرئيس العراقي وكرروا الوعيد سرا وعلانية، بتحويل العراق إلى «العصور الحجرية» الأولى.

وعلى الرغم من استعداد الخليفة للتجاوب مع مطالب هولاكو وتطميناته له بموقف الحياد إزاء ما يعتزم القيام به، وكذا تجاوب الرئيس العراقي مع فرق الأمم المتحدة، فإن عنجهية هولاكو وتحديه للخليفة لم توازها إلا عنجهية الرئيس بوش الإبن عندما «أمهل» الرئيس صدام حسين يومين فقط «لمغادرة البلاد هو وولداه».

● أما عنصر التشابه الثاني (مع التذكير بفارق الزمن والسياق)، فيكمن في تواطؤ «ذوي القربى» وتماهيهم مع خطط الغزاة ومشاريعهم.

فالوزير مؤيد الدين ابن العلقمي لم يقتصر دوره على إخبار هولاكو بتخبط الخليفة وضعفه وقلة الحيلة من بين ظهرانيه، بل أشار عليه برسالة منه يقول له فيها «احضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك»، تماما كما أوحت «المعارضة العراقية بالخارج» (سيما أحمد الجلبي) على الرئيس الأمريكي بأن العراقيين سيستقبلون جنوده بالورود والترحاب... فأشاروا عليه باستعجال «الدخول المظفر».

وإذا كان هولاكو قد طلب من ابن العلقمي إقناع الخليفة بفائدة تقليص حجم جيش الخلافة (بغية إضعافه عددا وعدة ومؤونة)، وهو ما نجح الوزير فيه على خلفية من «ضرورة التخفيف على الميزانية من الأعباء المالية»، فإن الرئيس صدام حسين قد أضعف من سبل وإمكانيات الدفاع عن بغداد عندما أوكل الأمر للحرس الجمهوري (بإشراف عام من إبنه قصي ذي الخبرة العسكرية المتواضعة)، وعمد إلى تقسيم العراق إلى مناطق عسكرية أوكل قيادتها لأركان من نظامه كان ينقصهم التنسيق، ولا يحتكمون إلى خطة مركزية تكون الناظم لتحركهم أو تكون لهم الموجه والمرجع.

لم يدخل هولاكو بغداد مباشرة، بل عمد قبليا إلى تطويقها من الجهة الغربية وأشار على قادة جنده بالتقدم من الجهة الشرقية لإحكام القبضة عليها، تماما كما فعل الأمريكان عندما ضيقوا الخناق على بغداد من مداخلها الشمالية وأشاروا للدبابات (المؤازرة بالطائرات) بمحاصرتها من الجهات الأخرى، حتى لم تكد تمر بعض من أيام الحصار هاته، فإذا بالجنود الأمريكان فوق جسور بغداد، ثم بساحة الفردوس قلب العاصمة ورمزها.

● أما عنصر التشابه الثالث، فيتمثل في السقوط السريع لبغداد وضعف المقاومة بوجه الغزاة زمن هولاكو كما زمن بوش الإبن سواء بسواء.

فإذا كان هولاكو قد حاصر عاصمة الإسلام ودخلها في ظرف ثلاثة أسابيع (من 20 كانون الثاني (يناير) 1258 إلى 10 شباط (فبراير) منه)، وأمر سكانها بإلقاء السلاح والخروج من «القلعة» مستسلمين، فإن الجيش الأمريكي لم يتجاوز المدة ذاتها (من 20 اذار/ مارس من العام 2003 إلى 9 نيسان/ أبريل منه) لدخول العراق واحتلال عاصمته، بعدما «تبخر» الحرس الجمهوري وغادر بغداد كل أركان النظام، بما فيهم الرئيس صدام حسين ذاته.

وإذا كان هولاكو، باحتلاله لبغداد، قد بدا موضع استقواء على الجيران ومصدر تهديد ضمني لنفوذ الخلافة الواسع، فإن بوش الإبن بدا منتشيا بانتصاره السريع لدرجة تلويحه للجيران (وهو يعلن انتهاء «العمليات العسكرية الكبرى» من على باخرة جنود وهو بلباس شبه عسكري) بالاستسلام والانصياع للقادم من عناصر الاستراتيجية الموضوعة للمنطقة... للإقليم يقول البعض.

وعلى هذا الأساس، فبقدر ما لا يختلف سقوط بغداد زمن المغول عن سقوطها بالزمن الأمريكي (اللهم إلا اختلاف السياق والظروف المحيطة)، فإنه لا يبدو لنا أيضا أن ثمة اختلافا كبيرا في السلوك المعتمد بإزاء التعامل مع المدينة حجرا وتراثا وبشرا:

● فهولاكو أمر سكان عاصمة الخلافة بالخروج مستسلمين، حتى إذا انصاعوا إلى ذلك مكرهين أمر بإبادتهم جميعا بمن فيهم الأطفال والعجزة والنساء. فلم يسلم منهم إلا من هرب أو تخفى بالآبار أو والاه الحظ لهذا السبب أو ذاك.

أما الخليفة، فقد أحضر مهانا بين يدي هولاكو (هو ووجهاء بغداد) ليوضع بكيس مخيط، فتدوسه خيول المغول حتى الموت... ويقال برواية أخرى إنه ألقي به حيا بنهر دجلة.

لم يختلف الأمر كثيرا مع أركان نظام الرئيس العراقي، إذ ناهيك عن الذين استسلموا طواعية، فقد تمت ملاحقة الآخرين بكل أرجاء البلاد حتى إذا تم إلقاء القبض على الرئيس، قدم بصورة المعتوه المتسخ، الشارد النظرات، الذي لا يلوي على شيء... يتمنى المرء وهو يتأمل في حاله وما ينتظره، لو كان مصيره الموت بالمواجهة (كما فعل إبناه وحفيده) على مصير يدعو للحسرة والرثاء.

لم تكن الغاية من قتل هولاكو للخليفة بتلك الطريقة مجرد القتل، بل إرساله العبرة إلى غرمائه الآخرين بتشابه المصير إن هم لم يستسلموا أو يتعاونوا، تماما كما كان الأمر مع الرئيس صدام حسين الذي كان المبتغى من تشويه صورته (والحكم عليه بالإعدام شنقا فيما بعد) ترهيب بعض من حكام عرب ما يزال لديهم بعض من المقاومة أو الممانعة أو ما شابههما.

● وهولاكو لم يكتف بقتل ساكنة بغداد (قدره الذهبي بكتاب العبر بـ«ألف ألف وثمان مائة ألف وكسر»، وقدره ابن خلدون بـ«ألف ألف وثلاث مائة وألف»)، بل رمى خزائنها ومكنونات مكتباتها بنهر دجلة حتى اختلط سواد المداد بحمرة دم البشر، انتقاما حسب زعمه لما فعله المسلمون بالفرس عند فتحهم للمدائن، وكان عازما على إحراق كل بغداد لولا ثني «أهل مملكته» عن ذلك. كما استولى على قصور الخلافة وحريم الخليفة وما تركه من مكتنزات.

سلك الأمريكان السلوك ذاته عندما آل إليهم أمر بغداد، فغضوا الطرف عن عمليات سلب ونهب محتويات مؤسسات الدولة العراقية، وأشاعوا الفوضى بكل مكان واتخذ العساكر من القصور الرئاسية مقرات لهم ولقياداتهم... وقدر ما قتل على أيديهم أو في جريرة احتلالهم للبلاد ما يناهز (بصيف العام 2006) حوالي 700 ألف قتيل...ناهيك عن المحتجزين والمفقودين والمهجرين والمشتتين على دول الجوار وما سواهم.

وإذا كان هولاكو قد استباح الحرمات، وأمر بإراقة الخمر بالمساجد، ومنع الآذان وأجبر المسلمين على الإفطار برمضان وأكل لحم الخنزير، فإن الأمريكان سلكوا النهج ذاته، فاستباحوا الحرمات وأهانوا السجناء (بأبي غريب وبغيره) وهتكوا أعراض النساء أمام أعين أهاليهن وذويهن قبل أن يقتلوا الجميع بدم بارد... ناهيك عن إطلاق يد الميليشيات وفرق الموت وشرطة حكومة الاحتلال في التقتيل على الهوية والمذهب، حتى لا يكاد يمر يوم إلا والعشرات من الجثث «المجهولة الهوية» بالشوارع، والعشرات مثيلاتها «تسبح» فوق نهر دجلة أو مرماة بمحيطها.

● وهولاكو بتدميره لبغداد وتخريبه لمقوماتها، دفع بالعديد من الصناع والحرفيين والتجار والعلماء إلى الهروب خارج البلاد، بعدما تسنى له قتل العديد منهم تماما كما فعل الاحتلال الأمريكي، عندما عمد إلى مطاردة العلماء وأساتذة الجامعات والباحثين وقتل العديد منهم بوضح النهار، وابتز البقية الباقية للعمل بمراكز البحوث الأمريكية والإسرائيلية وغيرها.

كانت الغاية عند هولاكو تحويل بغداد إلى محمية مغولية بامتياز، تماما كما كان ولا يزال الهدف الأمريكي من استهدافه لعلماء العراق وباحثيه.

هل انتحر المغول حقا على أسوار بغداد؟

من التجاوز على التاريخ حقيقة القول بذلك بحالة خليفة ضعيف، محاط بحاشية فاسدة ومتآمرة ومقطوع عن محيط خلافته بالاعتكاف على التعبد أو باللهو مع مئات الحريم والجواري. ومن التجاوز أيضا القول بعجز خزينة الخليفة عن تكوين جيش قوي العدة والعتاد، وهو الذي اعترف لهولاكو بوجود حوض من الذهب بساحة قصره... لكن المؤكد فيما نزعم، أن الخلافة في حينه كانت قد دشنت عدها العكسي (وفق المنطوق الخلدوني) وبدأت القابلية على السقوط تتملكها، وشارفت عناصر الضعف والهوان على التمكن من مقوماتها. من الطبيعي هنا أن يتلقف هولاكو ذلك، ويبني خططه على أساس من استحضاره.

هل انتحر «مغول العصر» على أسوار بغداد كما تنبأ الرئيس صدام حسين بذلك، قبل أن ينسحب من الواجهة أو من المواجهة بزعم البعض؟

من المجازفة أيضا القول بذلك، تماما كما هو من المجازفة البالغة الادعاء بأن المقاومة كان مرتبا لها بدقة، وعلى أساس من الترتيب إياه انسحب أركان النظام درءا لدماء سكان بغداد، وفسحا في المجال لترتيبات المقاومة.

ليس ثمة من المعطيات والدلائل ما يثبت هذا الطرح أو يفند ذاك. لكن تقاطع عناصر ما جرى ويجري من واقع حال، لربما يوحي بأن إرهاصات المقاومة قد رتب لها قبل سقوط بغداد ومن زمن بعيد:

● فالرئيس العراقي لم يهرب من ساحة المعركة (بدليل تواجده ببغداد وقد غدت بيد الأمريكان)، بقدر مراهنته على حرب مدن وشوارع كان قد جند لها أكثر من عشرة ملايين عراقي، وزع عليهم الملايين من قطع السلاح وتم تدريبهم على حرب المدن... بمجموعات صغيرة، مرنة ومستقلة بجهة اتخاذ المبادرة والحركة.

هل من محض الصدف، إذا لم يكن الأمر مرتبا، أن تتمركز المقاومة (وقد قاربت مدة الاحتلال على الأربع سنين) بمدن كالناجي وأبو غريب والفلوجة والرمادي وسلمان بك والصويرة والرشيدية وبعقوبة وغيرها وهي التي تحدد أسوار بغداد؟ هل من الصدف أن تكون هذه المدن/الأسوار هي الأكثر عصيا على الاحتلال وحكومة الاحتلال، وهي التي داخل أسوارها يقتل الأمريكان وحلفاؤهم يوميا، وتجاهر المقاومة بسلاحها بوجههم بوضح النهار، ولا يستطيع الاحتلال التحرك بمحيطها... ولا تزال فوق كل ذلك، ساحات حرب بامتياز؟

● والرئيس العراقي كان يراهن، بصرف النظر عما سبق، على شعب جبل على المقاومة منذ عشرينات القرن الماضي، وكان يعلم علم اليقين أن هذا الشعب به أو بدونه، لن يسلم بغداد إلا على أجساد أبنائه. لذلك ترى الاحتلال وحكومة الاحتلال «محصنين» بالمنطقة الخضراء من بغداد، ولا يستطيعون التحرك بداخلها دونما خشية من ضربات المقاومة.

وإذا كان الرئيس صدام حسين طليقا بسجنه، فإن أعداءه (احتلالا وعملاء) مسجونين بالأسوار العالية والأسلاك الشائكة وكاميرات المراقبة ومرتزقة الحراسة الخواص. من يسجن من على هذا الأساس؟

لو كان ثمة من عبرة تستخلص مما سبق من قول، فهي حقيقة فشل المشروع المغولي لبلوغ مصر (ليموت هولاكو بتحسره على عدم إدراكه لذلك)، وفشل المشروع الأمريكي في إدراك مخططه للشرق الأوسط أو بعضا منه على الأقل... ليتذوق بوش الإبن، كما هولاكو من قبله، مرارة فشل مشروع لم يكن يدري أن مفاصله الكبرى ستتكسر حتما على أسوار بغداد؟

أزعم أن هذا هو المقصود من قول الرئيس صدام حسين... بانتحار مغول العصر على أسوار بغداد.

* باحث وأكاديمي من المغرب
elyahyaoui@elyahyaoui.org

عباس وحماس ورايس

د. حسين خازر المجالي*

■ في المؤتمر الصحافي الذي عقده عباس مع رايس، كنت أتمنى لو أني ما سمعت ما قاله الرئيس المحترم، فالانتقاد الذي وجهه الى جهود تشكيل حكومة الوحدة متباهيا أمام الأستاذة رايس كان غير موفق. كان أولى به وأليق بشخصيته كرئيس لشعب مضطهد ولبلد محتل أن يكون أكثر حكمة وثقلا وأن لا ينهار أمام سيدة وان كانت تمثل سياسة الدولة الاستغلالية الانتهازية الأقبح في العالم.

كنت أتمنى أن لا يكشف تكتيكات أو ترتيبات أو خطوات تشكيل حكومة الوحدة الوطنية متحججا بالوضع المأساوي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني من حصار وانتهاكات واعتقالات ومداهمات وخنق مقصود من الصديق قبل العدو، كنت أتمنى لو قال لها بكل شجاعة: لماذا تتآمرون على حكومة ديمقراطية صوت لها الشعب الفلسطيني وكانت هي خياره؟ أنتم من دعا ويدعو للاصلاح والديمقراطية بل أنتم نتاج افرازات الشارع الأمريكي ولم يعترض على هذا الخيار أحد فلماذا الازدواجية في هذا النهج أو هذا الادعاء؟

كان حريا برئيس محترم أن يستغل الفرصة ويحرج المتعجرف الأمريكي ومهندس سياسته الخارجية بأن يطالبها ويطالب بوش ويطالب العرب والأوروبيين بأن يسارعوا لفك الحصار عن الشعب الفلسطيني لا أن يقف معهم يكيل للفلسطينيين الشتائم والتهم على اختيارهم الديمقراطي.

كان واضحا من اللحظة الأولى التي انتصرت فيها حماس أن منظمة فتح وشلة الرئاسة الفلسطينية غير راضية عما تم وحصل، ولم يكن بمقدورهم الانقلاب ورفض النتائج لأنهم يعرفون أنفسهم من هم وما هي أجندتهم السابقة واللاحقة، ويعرفون نتاجاتهم والمأزق الذي أوصلوا فيه القضية الفلسطينية الى ما هي عليه الآن.

كان حريا بالرئيس المحترم أن يقف رافع الرأس صادقا مخلصا لقضيته ولشعبه ويدافع عن حكومته التي هي في غنى عنه في الأصل وليست بحاجته فهي تمثل الأغلبية المطلقة وكان تفضلا منها وحرصا منها على المصلحة العامة وتغليبا لها أن بادرت بفكرة حكومة الوحدة من بداية تأسيس الحكومة لكن الذي رفض هي فتح التي لا تتنازل أن تشارك في حكومة ترأسها حماس وتمتاز بالأغلبية الدستورية.

عباس أفشلنا وأخزانا بطأطأة رأسه وتخاذله أمام المعلمة رايس ظانا أن شتم حماس واتهامها باللف والدوران والكلام الفاضي والمليان على رأيه يعجب رايس ويقربه منها ويدعوها الى العطف والرحمة على الشعب المقهور والمحصور لتنقل الحال بحذافيره للزعيم بوش الذي سيتأثر بهذه الحال ويبادر الى التغيير أو خطة طريق أو مزيد من السراب والأحلام. ليتني ما رأيتك ولا سمعتك متخاذلا يا عباس، ليتك تقولها عالية لسلطتك بالدرجة الأولى وللمتآمرين من يعرب ثانيا وللعالم ثالثا أن مآسي فلسطين الكل ساهم فيها ولن يتم حلها بكل ما هو مطروح من مبادرة عربية أو قرارات دولية، كان أولى بالرئيس المحترم أن يحرج أمريكا لا أن يفرج عنها، أن يتهمها بالتآمر لا أن يستسمح منها بطء التغيير، أن يسود وجهها لا أن يبيضه بهذه التصريحات التي جعلت الصغير والكبير والقاصي والداني يظن أن مشكلة فلسطين هي حماس!!

لا بد للرئيس أن يستقيل، وأن يدعو لانتخابات رئاسة جديدة، وأن يعاد بناء منظمة التحرير الفلسطينية وأن يعاد هيكلة نظام الرئاسة والصلاحيات الممنوحة لكل من الرئيسين: السلطة والحكومة، وأن تتطهر النوايا والأيدي والقلوب والأفواه والعقول من كل مصلحة ذاتية أو تآمر أو خيانة. التاريخ يسجل في ذاكرته العميقة البعيدة الأبدية، وكم هم عظماء الذين أخلصوا، وكم هم أقزام الذين خانوا وتآمروا ورحلوا.

* مدرس/ جامعة عجمان
للعلوم والتكنولوجيا
dr_almajali@yahoo.com

الحكومة السودانية ومجلس الامن الدولي: الالتهام بعد الاتهام!

عثمان ابراهيم الطويل*

■ يجب ان تدرك الاطراف المتصارعة حول دارفور ان الشعب السوداني لا يريد ان يدخل فترة التثاؤب الطويل بل يريد الحوار والحلول السياسية لأزمة دارفور. ان مجلس الامن الدولي يعطي نفسه الحق في اتهام الحكومة السودانية واصدار احكامه ضدها وتنفيذها وكأنه يملك ولاية تمتد من المبادىء الى المشانق، فالسودانيون بالرغم من اختلافهم مع بعض السياسات الحكومية الا انهم يدركون ان هناك عناصر تتربص بهم وتحرش بهم ويدعون الله ان يحميهم من هذه العناصر المتربصة. ان قضية دارفور قضية متشابكة ومعقدة بأكثر من كونها قضية تطهير عرقي بين الزرقة والعرب. فلقد بدأ مجلس الامن بطلب واحد وخمسين متهما من السودانيين لمحاكمتهم في محكمة الجنايات الدولية ومن بين هؤلاء مسؤولون سودانيون من السياسيين والعسكريين، ولا يستطيع السودان بمنطق العدل والقانون ولا بمنطق السيادة والكرامة الوطنية تسليمهم حتى المنطق السياسي يرفض ذلك، لان الحكومة السودانية تدرك ان من بين المقاصد هدفا واضحا من مطلب تسليم المطلوبين هو امكانية الضغط عليهم لرفع المسؤولية المدعى بها ضدهم الى اخرين فوقهم من المسؤولين لانه ليس هناك احد فوق المسؤولية. ولكن في نفس الوقت ليس من حق احد ان يأخذ القانون في يده مبدأ تحقيقا وحكما وتنفيذا والا فهي فوضى قانونية وفوضى سياسية.

فالسودانيون بالرغم من اختلافهم مع بعض السياسات الحكومية الا انهم يدركون ان الغرب الاستعماري يريد السودان كله على هواه ويريده ارضا مفتوحة امامه بلا عوائق وحتى بلا تضاريس، فالسودان منطقة حيوية بالنسبة للغرب بسبب موارده البترولية ومعادنه النفيسة من الذهب والنحاس والفضة والحديد واليورانيوم وليس بسبب غرام مفاجيء بالزرقة الافارقة في دارفور والمناطق المهمشة.

فالعقاب الذي ينتظر السودان اليوم هو الالتهام بعد الاتهام، لانه لا يعقل ان تذعن دولة لدول اخرى في تسليم مواطنيها طبقا لاي قاعدة قانونية او ان تسمح بدخول جيوش الاحتلال لارضها دون اذن من السلطة التشريعية في هذه الدولة لان ذلك يعتبر عدوانا صارخا على السيادة الوطنية السودانية، لانه لم يحدث في التاريخ بين الدول المستقلة ان ظهر مثل هذا الطلب الغريب العجيب الا اذا كان الغرض التحرش والاذلال باسم العدالة او امن دارفور، فالتشريعات العالمية كلها تجمع كل الدول على التمسك بمبدأ اساسي ورئيسي يشكل جوهر السيادة الجنائية لكل الدول على مواطنيها الا وهو عدم تسليم مواطني الدولة الى دولة اخرى مهما كانت الاسباب.

فالحكومة السودانية قد بدأت في محاكمة المتهمين من جرائم الحرب في دارفور وحكمت المحاكم على بعض المتهمين بالاعدام والاحكام المؤبدة، لان القضاء الوطني هو المختص اساسا بمحاكمة مواطني الدولة المقيمين على ارضها عن اي جرم وقع في الداخل او الخارج وليس هناك اي استثناء في العالم كله على هذه القاعدة.

فالسودانيون يدركون ان امريكا لا تلبس ثياب القاضي في هذه القضية وانما تلبس ثياب المنتقم قاطع الطريق، ثم انها لا تمسك بميزان العدالة في يدها ولكنها تمسك بالخناجر والقنابل. ان اصرار مجلس الامن على دخول القوات الاممية الى السودان تحت البند السابع هو اصراره على تسليم المتهمين ومحاكمتهم في محكمة الجنايات الدولية ولانتزاع الاعتراف منهم بأن الحكومة السودانية وراء هذه الجرائم ضد الانسانية ويكون ذلك ذريعة لاسقاطها ولو بالقوة، وربما عبر اليات الشرعية الدولية ثم عبر الحل العسكري، لان الاستراتيجية الغربية قد استقرت على تغيير النظام السوداني طوعا او كرها مهما كانت ايجابية مواقفها في الحلول للمشاكل بالوسائل السياسية التفاوضية السلمية.

فالرئيس السوداني عمر حسن البشير عندما اقسم ثلاث مرات انه لن يسلم مواطنا سودانيا ولم يسمح بدخول القوات الاممية الى دارفور، ليس ذلك رفضا للقرارات الدولية الصادرة من مجلس الامن ولكن تنبيها لهذا المنهج المتطرف الجديد وخطورة اتباعه لان القرار جاء ليمس السيادة السودانية الوطنية. فلا يعقل ان يوافق الرئيس ان يحاكم مواطنو السودان خارج بلادهم او ان يسمح بتدنيس ارض البلاد بقوات اجنبية تمس السيادة الوطنية. وهذا ما دفع السودانيين جميعا للالتفاف حول الرئيس وعلى الضعيف والمتخاذل من الاحزاب التي تعارض الحكومة وتؤيد التدخل الدولي في دارفور والمتخاذل تدور الدوائر بعد ان تميزت الصفوف. ويبدو ان لعنة قرار 1593 وقرار 1706 جاءت لتضع المسمار الاخير في نعش القوى السودانية المعارضة ولا اقول نعش حزب الامة بقيادة الصادق المهدي او المؤتمر الشعبي بقيادة الدكتور حسن الترابي او الحزب الشيوعي بقيادة الاستاذ ابراهيم نقد. لقد رسب زعماء الاحزاب الثلاثة في الامتحان ولم يستطيعوا التفريق بين معارضة الحكومة ومعارضة الوطن. فالرئيس البشير قد رفض تلبية رغبات الغرب الاستعماري الجامحة وغير العادلة والذي يتخذ من مجلس الامن اداة لتحقيق اغراضه واهدافه. يطالب مجلس الامن في وقاحة ليست بعدها وقاحة ان يقوم السودان بتسليمه واحدا وخمسين مواطنا سودانيا ليحاكموا في محكمة الجنايات الدولية في لاهاي في تهم تختص بالجرائم ضد الانسانية وان تسمح الحكومة السودانية بدخول قوات اممية لاقليم دارفور.

لقد وعدت الحكومة السودانية المجتمع الدولي بأنها ستقوم بمحاكمة هؤلاء المتورطين وشكلت لجان تحقيق قضائية وعقدت محاكمة جنائية وحاكمت ونفذت الاتهام ضد المتورطين باعتبار ان القضايا جنائية والاختصاص فيها للمحاكم السودانية وليس لمجلس الامن. ادرك السودانيون ان الهدف السياسي للدول الغربية هو الاطاحة بنظام الرئيس البشير باعتباره نظاما حرا لا يقبل التبعية ويرفض ان يكون تابعا. والغرب الاستعماري لا يرضى ابدا ان تكون هناك دولة خارجة عن دائرة التبعية. ولذا كان امام الرئيس البشير ان يختار بين امرين اما التبعية للغرب الاستعماري او الارادة الحرة السودانية، فالقرار الذي اتخذه مجلس الامن كان متوقعا حيث مهدت له الولايات المتحدة مع حلفائها برفض عدة مبادرات سودانية، بالرغم ان الحكومة السودانية ظلت تخطط من خلال مباحثاتها مع متمردي دارفور في دول الجوار العديد من التنازلات والعروض والقبول بدخول القوات الافريقية، فالذريعة التي يتذرع بها مجلس الامن هي ان الحكومة السودانية ترفض تنفيذ القرارات الدولية ولا ترضخ لقرارات مجلس الامن، في الوقت الذي نجد ان الغرب الاستعماري يستخدم مجلس الامن لتغطية عملياته التآمرية وهو يستطيع توجيه قرارات مجلس الامن والذي منع الصين من استخدام حق النقض. وهكذا برز دور خطير في تحويل مجلس الامن الى مؤسسة تخضع للابتزاز الغربي وللسيطرة الامريكية حيث فقدت الامم المتحدة دورها كمنظمة دولية للحكم في النزاعات التي تحصل بين الامم.

فالحقيقة التي يدركها السودانيون جميعا انهم امة مستهدفة يتربص بهم الاعداء فعروبة السودان او افريقيته او اسلاميته يجب ان تفهم انها امتداد لافريقية السودان اي ان السودان جسر بين العروبة والافريقية كما ان الهوية السودانية هي التي تجمع العرب والافارقة والمسلمين والمسيحيين واللادينيين في سودان الدولة برباط المواطنة. فالدولة في حجم السودان بموارده المالية الهائلة وبأراضيه الشاسعة وبحكمة قادته وواقعيتهم وبقيمهم الروحية التي لا تتبدل مثل هذه الدولة التي تملك المقومات الحضارية الحقيقية لا يمكن ان يترك السودان ينطلق بل ستظل هناك مطبات وخوازيق، فالمطلوب من القيادة السودانية الحكومية منها والمعارضة ان يضعوا العقلانية الحديثة في مواجهة اللامنطقية التقليدية لان الارتماء في احضان امريكا لن تفيد المعارضة السودانية بشيء وما تجربة العراق عنا ببعيدة.

وعلى الجهات المعارضة الابتعاد بعض الشيء عن تلك المواقف الخيانية الكيدية لان الحكومة الحالية هي حكومة الامر الواقع، وعلى المعارضة في ظل التحول الديمقراطي ان تضع برامج بديلة للقضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تخدم سلامة الوطن واستقراره.

فالسودانيون في ظل حكومة البشير قد اكتسبوا وعيا سياسيا عاليا ولا يستطيع كائن ما تضليلهم او اجبارهم لتجيير ارادتهم. فالمعارضة يجب ان تدرك ان هذه الحكومة لا تحكم ارضا اخرى، انها حكومة تجسد ماضي الأمة السودانية وحاضرها ومستقبلها، لان السودانيين ينظرون لمستقبل بلاهم في ظل حكومة البشير بثقة مطمئنة حتى ولو كانت هناك بعض علامات استفهام دون ان تدرك المعارضة ان القاسم المشترك هو رؤية علامة تعجب حول خزعبلاتها ومواقفها الاستكانية الداعية للاجنبي عبر القوات الدولية بتدنيس ارض السودان.

* وزير ومستشار وسياسي
من جنوب السودان

انبعاث الأدوار الاقليمية في المنطقة العربية

معقل زهور عدي*

■ يتساءل كثيرون عن حقيقة المواقف المستجدة لبعض الدول العربية ذات الأدوار الاقليمية؟ فجأة يبدو كأن عصا سحرية تمر فوق الرؤوس لتجعلها تستفيق من سبات عميق وتبدأ تفكر وتتحرك بزخم غير معهود.

ما الذي جرى في هذا الشرق العربي المنكود ليثير الحماسة ويغير نبرة الخطاب السياسي؟

يعرف كل ملم بالتاريخ السياسي للمنطقة العربية تباين أدوار دوله في صنع ما هو عام ومشترك في ذلك التاريخ بل في التدخل في السياسات الداخلية وامتلاك خيوط الفعل والتأثير.

ثمة دول مركزية فاعلة ومؤثرة وأخرى نصف فاعلة وثالثة بالكاد يسمع صوت لها في الأزمات الكبرى.

لكن ما شهدناه منذ 11 ايلول (سبتمبر) 2001 وبصورة خاصة منذ احتلال العراق هو انكفاء السياسات الاقليمية لصالح السياسة الأمريكية التي غدت القوة الاقليمية الكبرى في المنطقة فضلا عن كونها القطب الأوحد في العالم.

بدافع الخوف والشعور بالتهديد تراجعت أدوار الدول الاقليمية لتتمركز حول الدفاع عن ذاتها وتقديم أية قرابين لنيل رضى الآلهة الأمريكية التي لا يهدأ غضبها، لكن بعد حوالي أربع سنوات من انطلاق الحملة العسكرية لاعادة احتلال المنطقة العربية بدأت الأجواء تتغير، فالآلهة الأمريكية أصيبت وهوت هيبتها، وكعب أخيل العراقي فضح أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها أمام مقاومة عراقية غير قابلة للهزيمة، بالأحرى لم يعد الوحش النازف الواقع في الفخ يثير الخوف سوى لأولئك الذين تورطوا وربطوا مصيرهم به وصدقوا نظرية فوكوياما في نهاية التاريخ وانصياع التاريخ للقوة الأمريكية التي لا تقهر.

تبلور تلك الحقيقة وانكشافها بدآ يعيدان تشكيل المشاعر والأفكار في المنطقة، وبدون شك فقد شكلت حرب لبنان صدمة نفسية كبيرة لكل من اسرائيل وأمريكا بحيث أضافت نتيجة تلك الحرب زخما للفكرة التي كانت تتبلور حول محدودية القوة الأمريكية المتحالفة مع القوة الصهيونية في صنع (الشرق الأوسط الجديد).

حين بدأت الاشارات تطلق من الولايات المتحدة عن الحاجة لأدوار اقليمية من أجل تأمين خروج مشرف للقوات الأمريكية من العراق كان ذلك اعترافا ضمنيا بانتهاء حقبة الاندفاعة العسكرية التي بدأت بغزو العراق وأفغانستان، ودخول المنطقة مرحلة ما بعد الانكفاء الأمريكي.

هكذا بدأت كل القوى الاقليمية تعيد حساباتها، سواء منها ما كان بدافع الطموح والتوسع أو بدافع وعي المخاطر والتحديات القادمة، ومنذ اليوم سوف نشهد أوسع عملية خلط للأوراق في المنطقة، ونشوء المحاور والتحالفات، وربما احتدام الصراع بين تلك المحاور ليصبح هو الموضوع الرئيسي للسياسات الاقليمية بينما يتراجع الدور الأمريكي باضطراد ليصبح داعما لهذا المحور أو ذاك مع الابقاء على المسافة الكافية بتأمين عدم التورط في فخ شبيه بالفخ العراقي.

لكن صعود الأدوار الاقليمية سوف يصطدم سريعا بصعود التيارات الشعبية المقاومة للهيمنة الأمريكية، فالهيمنة الأمريكية لم تنته بعد، والحساب بينها وبين شعوب المنطقة ما زال مفتوحا، واذا كان هم الأنظمة ينصرف لتأمين مقومات بقائها واستمرارها ضمن ظروف الانكفاء الأمريكي، فان للشعوب العربية هما مختلفا ليس من السهل تغييبه أو الالتفاف عليه.

ليس من المستبعد أن تعمد الأنظمة العربية لاستخدام سياسة الأحلاف كبديل عن الدرع الأمريكي الذي اتكلت عليه فترة طويلة قبل أن تبدأ الولايات المتحدة بالتحول نحو اعتماد التدخل العسكري المباشر لتأمين هيم